

ترسيخ حق الهوية الفلسطينية في أدب الطفل

- قصص محمد جمال عمرو أنموذجا-

Installing the right of the Palestinian identity in the juvenile literature

- the stories of Mohamed Jamal Amro as a
model-

دخية فاطمة*،

جامعة محمد خيضر، بسكرة،

f.dakhia@univ-biskra.dz

صليحة سبقاق،

جامعة محمد خيضر، بسكرة،

saliha.sebgag@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022.02.05

تاريخ القبول: 2022.03.30

تاريخ النشر: 20.22.03.31

**Ex
PROFESSO**

المجلد 07، الرقم 01، السنة 2022

ملخص

عندما يتعلّق الأمر بالأدب الموجه للطفل العربي على وجه الخصوص، فإن كاتبه لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يبتعد عن كل ما يشكل خصوصية الإنسان العربي، وفي هذا المجال تبرز مسألة الهوية التي سعى العربي إلى تكريسها وتنشئة أطفاله عليها، ومن هنا يهدف البحث إلى الكشف عن مدى تمكن القاص محمد جمال عمرو من تهيئة الطفل الفلسطيني لاكتساب هويته الخاصة التي تميزه عن غيره وتقصي الآليات الفنية والأسلوبية التي وظفها في نصوصه والتي من شأنها أن تصوّر الانتماء كأهم مظهرات الهوية، وتقصي مكونات الخطاب السردي التي تمكن الكاتب من خلالها من جعل الطفل الفلسطيني يستشعر الانتماء إلى أبويه وعائلته ووطنه وأمته.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الطفل، الوطن، الانتماء

الفلسطيني.

Abstract

When speaking about the literature devoted to the Arab child particularly, the author cannot alienate himself from what characterizes the Arab person. In this context manifests the issue of identity that the Arab worked to install and teach the children on its bases. From this point, this study aims at revealing the ability of the narrator Mohamed Jamal Amro to prepare the Palestinian child to acquire his own identity that is distinct than the others. Moreover, the paper aims at tracing the stylistic and artistic mechanisms used in the text to depict belonging as the main manifestations of the right to identity. Furthermore, it aims at finding the components of the narrative discourse of the author through which he managed to make the Palestinian child enjoy the sense of belonging to his parents, family, country, and nation.

Keywords : identity; child; Palestinian; belonging; country

Url de la revue :

<https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/484>

*- المؤلف المراسل.

مقدمة:

إن إدماج ثقافة الوعي بحقوق الإنسان تربوياً في المجال التعليمي أو في مجال أدب الأطفال عموماً، يضمن انسجام الطفل مع واقعه ومحيطه ويدفعه للمحافظة على حقوقه واحترام حقوق غيره، وهذا الإدماج الاستراتيجي عندما يكون مقصوداً أو ممنهجاً "يضمن انسجام البيداغوجيا والتربية و الثقافة مع واقع الانسان، من حيث مدى الاعتراف بحقوقه، نظرياً وتشريعياً، ومن حيث مدى احترام هذه الحقوق عملياً"¹ فإذا تعلق الأمر بحق الهوية يكون حرياً بكتاب أدب الطفل أن يأخذ بحسابه أن انسجام التربية و الثقافة مع الواقع يفتح أمامه مواطن كثيرة يبت من خلالها تمثيلات عديدة للهوية، كما أن طبيعة أدب الطفل تلزمه باتباع أساليب خاصة لأنه يكون في مواجهة متلق خاص، ففئة الأطفال " تتميز بمستوى عقلي معين، وبإمكانات وقدرات نفسية و وجدانية تختلف عنّا نحن الكبار، ووسائلهم في البحث والتفكير والتحليل والاستيعاب ليست كوسائلنا الناضجة التي اكتسبناها بالمران والتجربة الطويلة والثقافات المتنوعة"² وقد أخذ الكاتب محمد جمال عمرو في حسابه ذلك وهو يوجه الطفل العربي إلى التمسك بحق هويته التي تجعل منه مواطناً صالحاً، فلقد كان يدرك " ضرورة أن ينشأ جيل صالح قوي يكون قادراً على خوض غمار الحياة، ومواجهة الأخطاء والتحديات المختلفة لأجل تحقيق الرفعة والكرامة...وهي مهمة ليست سهلة لأن الأمر يتطلب أن يربي الجيل تربية صحيحة، وبعد إعدادا كافيا بحيث يمتلك الرؤيا الواضحة والأدوات اللازمة والعزيمة الصادقة"³ ورؤية الطفل لا يمكن أن تتضح بالشكل المطلوب إلا في حدود إدراكه لهويته الخاصة وتقبله لها و وعيه بكونها حق من حقوقه عليه التمسك بها وحمايتها.

I. تمظهرات حق الهوية في قصص محمد جمال عمرو:

لقد أدرك الكاتب أن حق الهوية لا يكتسب من خلال تقديمه للطفل عبر بنود ومواد الاتفاقيات العالمية، بل هو حق ينبغي أن يتجذر ويرسخ في نفوس الناشئة، لكي يغدو قيمة إنسانية تتمظهر في السلوك الاجتماعي والثقافي للإنسان العربي، كما أدرك أن الهوية لا تقدم للطفل دفعة واحدة، بل ينبغي أن يكون لها تمظهرات تتضاهر فيما بينها ليشكل الطفل من خلالها هويته التامة، كل ذلك من خلال التربية التي تعتبر من أهم الركائز التي يقوم عليها أدب الطفل كونه رافداً من روافد التربية التي تقدم في الأسرة والمؤسسات التعليمية، التي بدورها تسعى إلى تكريس حقوق الإنسان في منظومتها التعليمية لأن " التربية هي التي يمكنها أن تحوّل هذه الحقوق إلى طاقة ثقافية حية تفعل فعلها في عقول البشر وفي أنظمة إدراكهم، وأن تفرس

حقوق الإنسان فيما في عمق التكوينات الروحية للإنسان⁴ وعلى هذا الأساس التربوي فإن
محمد جمال عمرو اعتمد على ما يساهم في تشكيل الهوية وهي :

1- الدين الإسلامي وتعاليمه.

2- التراث التاريخي العربي.

3- القضية الفلسطينية.

وإن كانت هذه التّمظهرات مبنوثة في أغلب أعماله القصصيّة، إلا أنه لديه قصصا
شكّلت في مضمونها وتفصيلها تمظّها جليًا وواضحًا، لذلك رأينا أن نعتمد في الجانب التطبيقي
من البحث على قصص محدّدة وفقا للتمظهرات التي تحتويها وقد وقع اختيارنا على القصص
الآتية:

1- الخليل مدينة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

2- في خرفة الجنّة.

3_ صقر فلسطين كاید مفلح العبيدات.

4- القدس حاضنة الأقصى.

5- الطائر الأخضر (مجزرة المسجد الإبراهيمي).

وإننا نضع هذه القصص على قيد البحث لأنها تقوم بالدور المنوط بأدب الطفل وتشكّل
أهم الوسائل التعليميّة الموجهة للأطفال، وإن كان يتضح لنا أنّ "معظم المواد المقروءة
والمسموعة والمرئية التي تقدّم للأطفال خارج المدرسة وداخلها ترتبط بثقافة الذّاكرة لا بثقافة
الإبداع، فهي حقائق سردية تقريرية...كما أنّها لا تحقّق حوارًا مع الطفل، وهي مادة تخلو من
التعليل والتفسير والموازنة وإعمال الفكر، وفيها إهمال للبحث عن العلاقات بين القضايا، وبعد
عن استخدام الخيال"⁵. إلا أنّ ما وجدناه في قصص محمد جمال عمرو يختلف عن هذا، إذ
أنّ آلياته الأسلوبية تحثّ الطفل على التعليل والتفسير وربط العلاقات ببعضها مع الاستخدام
الوظيفي للخيال.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الاستراتيجية التي وضعها الكاتب خلال مسيرته الإبداعية
القصصية الموجهة للطفل تتقاطع وتشارك مع مواد وبنود اتفاقيات حقوق الإنسان بصفة
عامة ومع حقوق الطفل والطفل العربي بصفة خاصّة، وإننا نجد أنّ الأبعاد التعليمية
لتمظهرات الهوية في قصصه تدور في أغلبها حول ما يجب أن يكون التّعليم موجّهًا نحوه:
أ- تنمية شخصيّة الطفل ومواهبه وقدراته العقلية والبدنية إلى أقصى إمكاناتها.

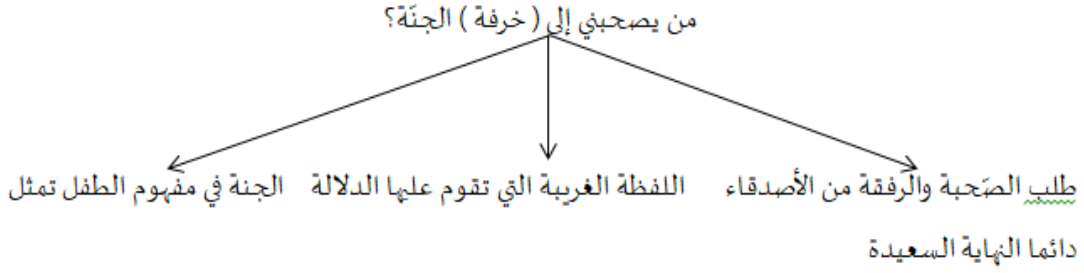
ب - تنمية احترام الطفل وهويته الثقافيّة ولغته وقيّمته الخاصّة والقيم الوطنيّة للبلد الذي يعيش فيه الطفل والبلد الذي نشأ فيه في الأصل والحضارات المختلفة عن حضارته.

II. الآليات التي شكّلت مظهرات الهوية:

إنّ اعتماد محمد جمال عمرو على لغة سلسة وبسيطة كغيره من كتّاب أدب الطفل لم يمنعه من تأثيث نصوصه بجماليات لغويّة متنوّعة، وإن كانت بسيطة وغير مغرقة في المجاز أو الانزياح، ممّا يساعد على "قرب المفهومات والمدركات من عالم الطّفل، وتوفير التّكرار اللّازم للفظّة الجديدة، والإكثار من الألفاظ المألوفة والتراكيب القصيرة والاقتصاد في الروابط، بغية الابتعاد عن الجمل المركّبة، وعدم الإغراق في المجاز"⁶ وهذا ما يجعل لغته أدبيّة وتوصيليّة في آن واحد، ونحدّد فيما يلي أهم هذه الآليات الأسلوبية:

الآلية الفنيّة الجمالية:

لقد حرص الكاتب على التّأثير في المتلقي الطّفل بما يجعله يستقبل نصوصه بكل شوق وأريحيّة، إيماناً منه بأنّ أدب الطفل "ليس عملاً تربوياً فحسب ولكنّه عمل فنيّ أيضاً، بل هو عمل فنيّ أوّلاً"⁷ فقد كان يعزّز دلالة الفكرة بجمالية الأداء الفنيّ اللغوي، ومن ذلك أسلوب اللّعب بالكلمات، كما وظّفه في قصّة (في خرفة الجنّة)، إذ تبتدئ القصّة بسؤال يوجّهه الطّفل نزار إلى أصدقائه في غرفة الصّفّ: (من يصحّبني إلى خرفة الجنّة؟ سؤال صغير ما إن طرحه نزار حتّى ضجّت غرفة الصّفّ بالضّحك، وبعبارات الدهشة والتّعجب. قال سعد: لا تضحكوا...إنّه يقصد غرفة الجنّة)⁸، إنّ استهلال القصّة بأسلوب استفهامي يحفّز الطّفل القارئ منذ الوهلة الأولى، ويدفعه إلى التّرقّب، ثم يلجأ الكاتب في نفس الجملة الاستهلاكية إلى توظيف لفظة غريبة عن الأطفال وغير متداولة في مستوى سنهم وتفكيرهم، وهي لفظة (خرفة)، التي تقع في حدود الجنس مع لفظة (غرفة) المعروفة والمتداولة في محيطهم، حتّى أنّ الطّفل سعد فكّر في إنقاذ نزار من الورطة التي اعتقد أنه وقع فيها فقال: (إنه يقصد غرفة الجنّة) وعندما بقي نزار ساكناً ولم يؤكّد ذلك، أردف عمر: (مستحيل! نزار أكثرنا إتقاناً لقراءة القرآن، وهو يتقن مخارج الحروف، فكيف يلفظ الغين خاء؟)⁹ وهنا يمعن الكاتب في إدهاش الطّفل ويجعله يتوقّع أنّ اللفظة (خرفة) صحيحة وأنها أبلغ من لفظة (غرفة)، والحقيقة أنّ الجماليّة في الأسلوب الاستفهامي الواقع في الجملة الاستهلاكية ألفت بظلالها على كل جزئيات القصّة وشكّلت محور الدلالة التي تدفع الطّفل المسلم إلى الاقتداء بسنة نبيّه عليه الصلاة والسّلام، ويمكننا تحليل هذه الجملة كالآتي:



فجميع الأطفال يحبون الذهاب إلى الجنة، ولكن لفظة (خرفة) جعلتهم يصمتون ويفكرون ملياً قبل مرافقة نزار إليها.. إلى أن (استأذن الطالب الكفيف نبيل وقال: أنا أصحبك يا نزار، فتعجب المدير وقال: إذن فهمت ماذا يقصد نزار؟ ردّ نبيل: نعم فهمت، إنّه يقصد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع")¹⁰ وقد تعمّد الكاتب أن يكون التلميذ الذي يفهم معنى الكلمة كفيفاً لأجل إيصال فكرة أنّ جميعنا مطالب بمعرفة ديننا وسنة نبينا، وقد أوضح للقارئ ذلك عن طريق قول مدير المدرسة (تبادل التلاميذ النظرات والدهشة وساد الصمت لحظة، فقال المدير: أرايتم كيف تغلب زميلكم نبيل عليكم؟ لقد فهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يمنعه فقدان بصره من التفقه في الدين، حيواً معي نبيلاً مرة ثانية)¹¹ وقد كان نزار يريد أن يرافقه إلى زيارة زميلهم المريض والاطمئنان عليه وقد تحمّس الجميع للذهاب بعد هذا الذي حصل.

إنّ إخراج الاستفهام من دلالاته الوظيفية إلى سياقات فنية، يجعل الطفل يتمسك بسنة النبي الكريم، مما يسهم في إحساسه بهويته الإسلامية، فإذا كان الإسلام عنصراً مهماً في هوية الطفل العربي فهو أيضاً يجعل زيارة المريض حقاً من حقوق المسلم على المسلم، ثم إنّ الكاتب يختتم القصة بأسلوب استفهامي أيضاً حيث يدفع الطفل إلى الإصرار على التمسك بتعاليم دينه، إذ يقول الطفل نزار: (إنني أحلم بالسير في بساتين الجنة المثمرة، والجلوس فيها حتى تغمرني رحمة الله تعالى، ويستغفر لي سبعون ألف ملك، فمن يصحبي إلى خرفة الجنة يا أصدقاء؟)¹² ويأتي السؤال هنا بعد زوال الدهشة، ليتحمّس الجميع ويسارعوا إلى زيارة المريض والسير في خرفة الجنة، ولو أنّ الكاتب عمد إلى ذكر الحديث الشريف مباشرة وشرحه في متن القصة لما كان وقعه بنفس القوة في نفس الطفل المتلقّي، وهذا ما يؤكّد لنا أنّ أدب الطفل عموماً ينبغي أن "يجمع بين خطابين، خطاب النصّ والخطاب التربوي فثمة منظومة كلمات هي من طبيعة الأدب وثمة منظومة قيم هي من طبيعة التربية وغاياتها، وتبدو متأثرة أدب الأطفال في اندغام هاتين المنظومتين داخل لغة تتعدّى مخاطبة الأطفال إلى إذكاء روحهم وإثارة وجدانهم بجوهر الحياة"¹³.

وفي قصّة (القدس حاضنة الأقصى) فإنّ جمالية الأداء الفني تقوم على توظيف آلة (الكاميرا) لتوصل الطّفّل المتلقّي إلى معالم وأحداث عميقة من تراثه التاريخي الذي يشكّل لبنة أساسيّة في هويّته، والحقيقة أن حقّ الهوية له من الخصوصيّة ما يجعله يختلف عن باقي حقوق الإنسان، لأنّه الأساس الذي يصنع الإنسان الذي سيكون قادراً على المطالبة بباقي حقوقه وقادراً على حمايتها والدفاع عنها، وقد تجلّت القيمة الفنيّة في القصّة من خلال دلالة (الكاميرا) لأنّها:

-آلة مشوّقة، يتمنى الأطفال استعمالها دوماً، لأنّ عالم الصور والتصوير له إغراءاته النفسية لدى الأطفال خاصّة.

-الكاميرا هي الأداة الأساسيّة التي يمكننا من خلالها رؤية الماضي، إذ أن مجرد رؤية صور لأشخاص أو أحداث قيمة يجعلنا نرى الماضي وكأنّه حقيقة أمام أعيننا.

تبدأ القصّة بصورة الأب وابنه عند شبّاك وهو يقدّم له كاميرا (هدية)، ومن الشّبّاك يظهر المسجد الأقصى وقبة الصّخرة عن بعد، ويستهلّ النص بما يلي: (اليوم هو واحد من أسعد أيّام حياتي، فقد أهداني والدي (كاميرا) جميلة، شكرته وقلت له: يا لك من أب رائع! أستطيع الآن تحقيق حلمي بهذه الكاميرا)¹⁴ ومنها سيشارك الطّفّل الجميع في رؤية ماضي الأمتة العربيّة بذكرياتهما السعيدة والحزينة، المشرفة والمؤسفة، وقد ركّز الكاتب على أحداث مفصليّة تُشعر الطّفّل المتلقّي بالاعتزاز بماضيه وبالانتماء المشرف لأمتته، فمن خلال عين الكاميرا يبثّ معلومات تاريخيّة ودينيّة تسهم في إدراك الطّفّل لهويته: (سوف ألتقط صورة جميلة للمسجد الأقصى المبارك، الذي كان قبلة المسلمين في صلاتهم قبل الكعبة المشرفة)¹⁵ ويواصل السارد (ليتني عشت زمن عمر بن الخطّاب الخليفة المسلم العادل، وصوّرت ذلك المشهد حين دخل عمر القدس فاتحاً سنة 636م... ليتني عشت سنة 1187م حين جاء صلاح الدّين الأيوبي إلى القدس وحزّرها من الصّليبيين)¹⁶ فهذا الخطاب التاريخي الموجه للطّفّل العربي يغرس فيه أهمّ مبادئ الانتماء لأمتته، بحيث لا تقوم قائمة الأمتة إلا بتاريخها، وبالتالي فإنّ المضمون التاريخي الذي قدّمه الكاتب للطّفّل من خلال عدسة الكاميرا يؤدّي " دوراً خطيراً في عمليات بناء الأجيال الجديدة التي ستحمل عبء تشكيل الحياة على هذه الأرض في الغد القريب، لأنّ ما يكتسبه الطّفّل في سنوات عمره الأولى من معلومات واتجاهات وقيم ومثل، يؤثّر في تكوين شخصيّته في المستقبل بدرجة يصعب تغييرها أو تعديلها فيما بعد"¹⁷ وهذه المكتسبات الأولى هي الأساس الذي تقوم عليه شخصية الطّفّل، فالكاتب بهذا لا يهدف إلى تحفيظ الطّفّل تاريخ أمته ولكنه

يهدف إلى تنشئة طفل يعتز بتاريخه، حيث أن قصص الأطفال هي أسهل وأقرب وسيلة يستقي منها الطفل المعلومات التي ترسخ هويته.

ويواصل الكاتب بناء الجانب الفني الذي صاغه اعتماداً على (الكاميرا) حتى يصل إلى نهاية القصة حيث يكسر أفق توقع الطفل القارئ بأن يجعل عدسة (الكاميرا) تتجاوز الماضي والحاضر لتستشرف المستقبل، وذلك بأن يطلب من الأطفال مشاركته في تخيل أروع صورة من الممكن أن تلتقطها الكاميرا، وهي صورة الأقصى محرراً من أيدي الصهاينة (ما رأيكم بصورة أكثر روعة من كل الصور التي ذكرتها؟ هي صورة مشهد نصنعه نحن جيل الأقصى وأبطال فلسطين، لكنه يتطلب منا العمل وبذل الجهد حتى يكتمل، وربما تعجز كل الكاميرات أمام روعته، وهل أروع من مشهد تحرير الأقصى الأسير من أيدي الصهاينة الغزاة)¹⁸ وهو هذا يجعل الطفل العربي يؤمن بالقضية الفلسطينية ويعتبرها إحدى مظهرات هويته، لأن الأقصى ملك لكل العرب المسلمين وليس فقط للفلسطينيين.

ونخلص إلى أنّ الكاتب قد حرص على ألا يكون تقديمه للهوية تقديماً تقريرياً مباشراً وجافاً، بل سعى إلى جعل الطفل يتوصّل إليها من خلال تمثيلاتها في الواقع وفي النص، وإذ وجد في التراث العربي والقضية الفلسطينية أهمّ التمظهرات التي تتمثل من خلالها الهوية العربية، فقد حرص أيضاً على تقديمها في قالب فني وجمالي يقدم المعلومة للطفل بحيث يؤثر فيه التأثير الذي لا ينتهي بانتهاء لحظة التلقي ولكنه التأثير الذي يلازم الطفل ويدفعه إلى تكوين شخصيته النابعة من صلب هويته.

آلية الخيال والتخييل:

إذا كان الطفل في مراحل عمره الأولى يجد صعوبة في فهم ماهية الأشياء المجردة فهذا لا ينفي قدرته على اكتشاف بعض الأشياء عن طريق التخييل، وإذا كانت النصوص ذات الوظيفة التعليمية خالية من الخيال فإنّ "النص الإبداعي يعتمد اعتماداً كبيراً على الخيال، وليس المقصود بالخيال الوهم، بل هو القدرة على تكوين العلاقات بين أمور لا يكتشف علاقاتها إلا المبدع..."¹⁹ ولقد وجدنا أنّ محمد جمال عمرو يعتمد على آلية خاصة ينشئ من خلالها خصوصيات مظهرات الهوية أمام عيني الطفل وفي ذهنه، وهي آلية تقوم على التفاعل بين الخيال والتخييل، وهي تقوم على ما يلي:

- اعتبار الخيال حافزاً مهماً من أجل تنبيه الطفل وجعله على أهبة التلقي، وذلك لأن الخيال هو الملكة التي يؤلف بها الكاتب الصور التي من شأنها أن تجعل الطفل العربي يتعرف على تراثه التاريخي أو تجعله يؤمن بأن القدس فلسطينية وعربية، فالخيال كما يقول الجرجاني: "قوة

تحفظ ما يدركه الحسن المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادّة بحيث يشاهدها الحسن المشترك كلّما التفت إليها، فهو خزانة للحسن المشترك²⁰ وسنفصل ذلك أثناء التحليل. -اعتبار التخيل فعل يبدأ بالخيال وينتهي به، فالخيال اسم يدلّ على طبيعة أو حال بينما التخيل فعل يدلّ على توظيف الخيال، فالكاتب والطفل المتلقي يشتركان في حصول الخيال في ذهنهما، بينما التخيل فعل يؤدّيه الكاتب اعتماداً على الخيال المشترك، ليبدو التخيل هنا هو "تصوير حقيقة الشيء حتّى يُتوهّم أنّه ذو صورة تُشاهد وأنّه ممّا يظهر للعيان"²¹ وهذا ما يعتمد عليه محمد جمال عمرو كثيراً حين يتعلّق الأمر بالتراث التاريخي والقضية الفلسطينية. ففي قصّة (الخليل مدينة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام) يدفع الكاتب القارئ إلى تصوّر حدث تاريخي عظيم يمثّل احتلال فلسطين من طرف الصّهاينة وطردهم الفلسطينيين وتشريدهم، وفي هذه القصة أيضاً يعتمد الكاتب على لفظة معيّنة تتشكّل من خلالها القيمة المهيمنة في النصّ السردي، ويلجأ إلى وضع اللفظة دوماً في بداية القصّة، كما رأينا مع لفظة (خرفة) و(كاميرا)، أمّا في هذه القصّة فهو يوظّف لفظة (المفتاح): (مرحباً يا أصدقاء أنا أسكن مدينة الخليل في قلب فلسطين، وإلى الجنوب الغربي من مدينة القدس، وأنا أحب جدّتي، لكنني أعجب كثيراً من تصرفاتها فهي تحتفظ بمفتاح كبير تلقّه بمنديلها الأبيض وتخبئه في خزانها الصغيرة)²² إن مجرد توظيف العبارات التي تدل على الخبايا والأسرار والكنوز يحفز خيال الطفل ويشتته إلى عدّة جهات، فيستغل الكاتب ذلك ليدفع الطفل إلى تخيل وجهة محدّدة، تقوم على بنى سردية تساعد على الأداء التخيلي فيقول السارد: (لكنني أنا عصام مكتشف الأسرار، سوف أداهم الخزانة الصغيرة لأعرف أسرار جدّتي العجيبة، هيا يا عصام، تقدّم... تقدّم، عصام ماذا تفعل؟ لماذا تفتح خزانتي؟ سألت جدّتي وهي تتقدم غاضبة)²³ وبما يثيره هذا الأداء السردى لدى الطفل المتلقي، تتشكل في ذهنه توقعات عديدة يفرزها خياله حول ما يمكن أن تحتويه الخزانة المغلقة من أسرار، ثم عندما تستلم الجدة زمام سلطة الحكمي، تكشف أسرار الخزانة ولغز المفتاح الغامض لتكشف للطفل قصة تشريدها وعائلتها من بيتها في مدينة الخليل (هذا المفتاح الكبير يا عصام هو مفتاح بيتنا في مدينة الخليل، حملته معي عندما احتل الصّهاينة المعتدون بلادنا فلسطين وطرّدونا منها سنة 1967)²⁴ حيث يبدأ الكاتب في تحويل دفة خيال الطفل في اتجاه ما يجسد هوية الإنسان الفلسطيني، ثم حين تبدأ الجدة في وصف مدينة الخليل وذكر الأحداث التاريخية الكبرى للنكبة الفلسطينية تبدأ عملية التخيل التي يمارسها الكاتب انطلاقاً من تبسيط الخيال حتى يصير بإمكان الطفل تمثيل هويته من خلاله، إذ أن الخيال يمثّل "حالة تعويض إضافي لدى الطفل، يتجاوز محتويات

النص الأدبي المكتوبة، بما يضيفه على الفكرة التي يقرأها أو يسمعها والنص الأدبي الناجح هو الذي يشكّل حاجزا لانطلاق خيال الطفل، بما يشيعه جو النص من احتمالات، وما تثيره العبارات من دلالات²⁵ وهذه الإثارة هي ما يرجوه الكاتب .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الكاتب محمد جمال عمرو من أصل فلسطيني وأنّ عددا كبيرا جدًا من الأطفال القراء لقصصه هم أردنيون من أصل فلسطيني أيضا أو فلسطينيون بأرض فلسطين، فهذا يجعل الكاتب والمتلقي يشتركان في الواقع، ولا يتكلف الكاتب عناء كبيرا في عملية التّخيل، لأنّ الطفل الفلسطيني من أكثر الأطفال في الوطن العربي الذين يتلقون تكريسا مختلفا لهويتهم، ولكن الجهد الأكبر الذي يبذله الكاتب في عملية التّخيل، فهو عندما يكون المتلقي هو الطفل العربي غير الفلسطيني.

وإذا كانت الآلية التخيلية أو القصّة أوصلت الطفل المتلقي إلى معرفة أحداث مرحلة حاسمة لعبت دورا مهما في تشكيل هويته، إلاّ أنها أسهمت في تحسيسه بالمسؤولية تجاه القضية الفلسطينية التي تحتاج إلى هبة أمة كاملة من أجل الخلاص من الاحتلال الصهيوني الغاشم، كما أن الكاتب فتح باب الخيال على مصراعيه أمام القارئ في نهاية القصّة، عندما ترك له الفرصة في إعمال خياله لتصوّر الحلول والأعمال التي من شأنها إنقاذ فلسطين، وقد عاد إلى توظيف لفظة المفتاح أيضا لفتح باب الخيال (تناولت جدّتي الحبيبة المفتاح الكبير، ولقّته بمنديلها الأبيض، وقدمته إليّ قائلة: المفتاح أمانة لديك يا عصام، أنتم جيل النصّر، وسوف تستردون الأوطان بإذن الله، وتعودون إلى بيوتكم هناك... بكت جدّتي وبكيت معها، واحتضنت مفتاح العودة)²⁶ إنه الخيال القابل للتحقق يوما ما، وليس الوهم الذي يظل وهما

وإذ نسجّل أن القضية الفلسطينية شكلت أبرز ما يمكن أن تتمثل به الهوية العربية في قصص محمد جمال عمرو، ربما للخصوصية التي ذكرناها سابقا، إلاّ أننا نسجل أيضا أنه حين كان يتحدث عن (الوطن) لم يكن يربطه بحدود المساحة الجغرافية الضيقة بل كان يعني به كل ديار العروبة والإسلام، مما يرسخ في ذهن الطفل المتلقي بأن الوطن العربي واحد.

ونخلص إلى أن الآلية البنائية التي تقوم على الخيال والتّخيل، أبعدت الخيال عمّا من شأنه أن يحصره في الوظيفة الجمالية فحسب، وعزّزته بالأداء التخيلي الذي يصل بالخيال إلى حدود الواقع والمأمول، الواقع الذي يكشف تظاهرات الهوية العربية، والمأمول الذي يقود إلى انتصار العربي بالمحافظة على هويته والدفاع عنها.

آليات الأداء العقلي والوجداني:

تأخذ اللغة الموجهة للطفل في الحسبان، حدود الإدراك العقلي له وخصوصية الانفعال الوجداني لديه، فيقول نجيب الكيلاني: "وأديب الأطفال الحق هو الذي يستخدم أداة اللغة بطريقة خاصة تجعل يستشعر المتعة والجمال والنظام والتوازن"²⁷ وهذا يعني أن الكاتب يستهدف المتعة والجمال والأحاسيس فيما يخص الجانب الوجداني ويستهدف النظام والتوازن فيما يخص الجانب العقلي، وانطلاقاً من الاثنين يمكنه تشكيل الدلالة التي يريدها.

لقد كان محمد جمال عمرو إذا أراد مخاطبة عقل الطفل يركز على وجدانه، وإذا استهدف وجدانه يعتمد على عقله، وهذا ما جعل أداءه متميزاً بحيث نعهه آلية فنية بذاتها، وعندما يتعلق الأمر بما من شأنه ترسيخ الهوية فقد كان أداءه يتراوح بين عقل الطفل ووجدانه، يركز على الأول إذا أراد الثاني، والعكس أيضاً، كل ذلك يواكبه حسن التخلص من أداء إلى آخر، ففي قصة (صقر فلسطين كاید مفلح العبيدات) يجمع الكاتب بين السرد التاريخي والأدبي، إذ تحكي القصة سيرة البطل كاید مفلح العبيدات، وهو أول شهيد أردني يروي دمه أرض فلسطين، ويستهلها الكاتب بتقديم معلومات خاصة بالأسرة العربية عموماً قائلًا (قبل أن تنتشر المدارس، كان الناس يرسلون أبناءهم إلى الكتائب، حيث يعلمهم شيخ الكتاب قراءة القرآن الكريم، والقراءة والكتابة والحساب، ويربهم على الرجولة والأخلاق الحميدة)²⁸ وهذا يستثير عقل الطفل ليدرك أن العرب كانوا دائماً يحرصون على تعليم أولادهم القرآن واللغة والحساب منذ صغرهم، مما يرسخ في ذهنه أن هذا الحرص متوارث عبر الأجيال العربية، ثم يتحوّل الكاتب إلى وصف الشخصية التاريخية كاید مفلح العبيدات ويذكر خصاله وأخلاقه وشجاعته، مركزاً على طفولته، إذ يقول (أعجب الطفل بشخصية خالد بن الوليد، وصالح الدين الأيوبي، وصار شاباً، وظلّ يحلم ويتخيل نفسه بطالاً مثلها يحيي فلسطين، أرض الأنبياء من الأعداء ويحيي القدس أرض القبلتين، وثالث المسجدين الشريفين وحتى يحقق حلمه راح يتعلم الفروسية على فرس رشيقة، شعرها سايل جميل، ولذلك سميت (الصقلاوية)²⁹ فهنا يحرك وجدان الطفل الذي يحب قصص البطولة والفرسان، إذ كثيراً ما يحلم الأطفال بأن يكونوا أبطالاً شجعاناً، وليس هناك بطولة أكثر من التصدي للاحتلال الصهيوني، وهذا الحلم ينبع من الوجدان ويحركه الخيال الذي نقصد به "تصوير الحالات الذهنية للغير عن طريق المشاركة الوجدانية ويظهر هذا في تصوير حالات الشخصيات العاطفية...."³⁰ إذ أن رغبة كاید في تحرير فلسطين ستنعكس على نفسية الطفل القارئ ويتمنى لو كان بإمكانه أن يفعل نفس الشيء مستقبلاً.

وفي نهاية القصة يستهدف الكاتب وجدان الطفل القارئ، بطريقة إعلانه لموت البطل الأردني، إذ يبدأ بذكر انتصارات العرب المتحدين (الأردنيين والفلسطينيين) على الجيش البريطاني والصهاينة، ليمهد لإعلان استشهاد البطل (اجتياز الأحرار نهر الأردن واشتبكوا مع الجيش البريطاني، وتوغلوا نحو المستعمرات الاستيطانية اليهودية في فلسطين، ففرّ اليهود الصهاينة الجبناء ذعرا وخوفا، وتدخلت الطائرات البريطانية، فأسقط فارس الصقلاوية إحداها)³¹ ثم يكمل (وفي ذلك اليوم أقبلت الصقلاوية على أهالي كفرسوم وحيدة حزينة فهتف الناس "الله أكبر... الله أكبر" لقد أدركوا أن الشيخ كايد مفلح العبيدات، فارس الصقلاوية، صقر فلسطين - كما سمّاه أهل قريته - قد اختاره الله شهيدا).³² ليجعل الكاتب في ذهن الطفل العربي القارئ أن الموت في سبيل الله هو انتصار وليس هزيمة، ويتقبل عقله بأن فارس الصقلاوية خرج لمواجهة جيش الاحتلال لأجل تحرير فلسطين أو نيل الشهادة في سبيل الله، مما يرسخ في ذهنه ما يشكّل فرادة الإنسان العربي المسلم وهويته التي تجعله يضحى بنفسه في سبيل الله وأرضه العربية.

إنّ الكاتب وهو يحاول ضبط آلياته الأسلوبية التي يستهدف من خلالها عقل الطفل ووجدانه في آن واحد، لا شك أنه يدرك بأننا "مطالبون بجهاد متواصل وصحوة مستمرة من أجل أن نظل قابضين على قيمنا، وتراثنا ولغتنا وديننا وثقافتنا الوطنية والقومية، في الوقت نفسه نعيش باستمرار حداثة واعدة خارجة باستمرار من عباءة التراث الأصيل"³³ وما تربية الطفل على الحفاظ على مقومات هويته العربية إلا جزء من الجهاد المتواصل الذي نحن مطالبون به. لاسيما وهو يأخذ جنسية البلد التي يلجأ إليها أو وهو يواجه جنسية شرسة وهي الجنسية الإسرائيلية، وهذا ما تظهره جليا قصة الطائر الأخضر (مجزرة المسجد الإبراهيمي).

ففي هذه القصة يبدأ الحديث على لسان الدكتور باروخ غولدشتاين وهو طبيب اسرائيلي مستوطن، قائلا: (كلما شاهدتهم يسرون في طرقات حبرون يتقطّع قلبي ألما...، صحيح أنّها بنيت قبل خمسة آلاف وخمسمئة سنة، وأنهم يسمّونها الخليل، وأن أجدادهم قد سمّوها خليل الرحمن، نسبة إلى نبيّ الله إبراهيم، وأن قبره وقبر أولاده وزوجاتهم في مغارة - المكفلا - داخل المسجد فيها، إلّا أننا - وبالقوة - قمنا باحتلالها سنة ألف وتسعمئة وسبع وستين، وهي الآن.. لنا وحدنا)³⁴ بحيث يحسّ الطفل المتلقي بالحقد الكبير الذي يحمله المستوطنون الصهاينة تجاه العرب، وكيف تتقطع قلوبهم من الألم لمجرد رؤيتهم للعرب يسرون في شوارع الخليل، مما يثبت أنهم أعداء الإنسانية والسلام، وهذا يكون الكاتب قد استهل القصة بالتأثير

في وجدان المتلقي الذي سيطمّلكه البغض والغضب تجاه أعداء الإنسانية، وليعلم أن العداء الذي تحمله الأمة العربية للصهاينة لم يأت من العدم.

ثم يبدأ الكاتب بسرد وقائع مجزرة المسجد الإبراهيمي، وقد ذكر الواقعة التاريخية بتفاصيل أحداثها الزمانية والمكانية لترسخ في عقل الطفل، بعد أن كان قد استثار وجدانه لتلقي أحداث الواقعة، فيقول: (لم يكن باروخ وحده الحاقد على أطفال الخليل ورجالها ونساءها، فقد كان هذا شعور جميع سكان مستعمرة الكريات أربع الاستيطانية، وشعور الجنود الصهاينة، فقاموا بوضع الخطة، وحددوا ساعة الصفر عندما يقرأ الإمام (غيرالمغضوب عليهم) في سورة الفاتحة في صلاة الفجر منتصف رمضان سنة 1414 هـ، في الخامس والعشرين من شباط سنة ألف وتسعمئة وأربع وتسعين)³⁵ وهذه الفقرة التي يصف فيها الكاتب حقد المستوطنين وتفصيل خطتهم الهجومية، تبين للطفل أن كل أبعاد هويته العربية هي مستهدفة من طرفهم، وهذا الاستهداف الدنيء تحدّدته الفقرة السابقة من خلال ما يلي:

-اختيار صلاة الفجر بالتحديد للهجوم على المسلمين لعلمهم بالمكانة الروحية لصلاة الفجر في نفوس المسلمين

-اختيار منتصف رمضان بالتحديد، الشهر الذي أنزل فيه القرآن، وكذلك كون المصلين يكونون صياما.

-تحديد آية (غيرالمغضوب عليهم) بالذات ك لحظة بدأ إطلاق النار لإيصال رسالة للعرب مفادها أنهم غيرالمغضوب عليهم، وأنهم أهل حق.

وهذا ما يوجب مشاعر المتلقي ويدفع بالطفل إلى استنكار حجم الحقد الدفين لديهم، ويجعله أيضا يرى أن الدفاع عن وطنه والتمسك بهويته حق وواجب.

وبعد أن يسترسل الراوي في سرد ما وقع في تلك المجزرة التي قتل فيها العشرات من المصلين غدرا، ومنهم الرجال والأطفال، يختم القصة بالحديث عن أم الطفل باسم الذي كان مع المصلين في المسجد قاتلا (هرعت أم باسم إلى المسجد تبحث عن صغيرها، أمعنت النظر في وجوه كثير من الأطفال الشهداء، صرخت في وجه أبيه: باسم... أين باسم؟، التزم أبو باسم الصمت، لكن صرخات أم باسم وإصرارها على معرفة مصير ابنها انطقه فقال: رأيت طائرا أخضر يحلق مع ملائكة السماء)³⁶ حيث يؤكد الكاتب للطفل القارئ أن الشهداء أحياء عند ربهم، وأن الاستشهاد في سبيل الله والوطن هو شرف يعتز به العربي المسلم ولا يحزن له.

ونخلص أن محمد جمال عمرو استطاع أن يدمج أبرز تمظهرات الهوية في هذه القصة عندما ربط بين التراث التاريخي والقضية الفلسطينية عن طريق استهدافه لعقل الطفل ووجدانه بحيث يعرفه بتاريخ أمته ويجعله يعتز بانتمائه ويتمسك بهويته.

خاتمة

في ختام البحث نسجل أن أدب الطفل يوفر تربة خصبة لإنبات كل ما من شأنه أن يغرس في الطفل ملامح هويته، ويجعله يعتز ويتمسك بها ويدافع عنها، وقد كان الكاتب محمد جمال عمرو حريصا على أن يقدم للطفل المتلقي العربي أساسيات هويته العربية، من خلال عدة تمظهرات تتشكل من خلالها، حيث أن الخصوصية التاريخية والثقافية التي تجمع أفراد الوطن الواحد هي التي تشكل ذلك الأساس.

وقد استنتجنا أن الكاتب كونه اشتغل كثيرا على الكتابة للأطفال يعي جيدا أن حقوق الطفل لا ينبغي أن يتعرف عليها من خلال اللوائح القوانين، بل ينبغي أن تقدم له في قالب تثقيفي وتعليمي، بما يتناسب ومدركاته العقلية والنفسية، وقد اعتمد على آليات أسلوبية محدّدة رأى أنها الأصح لمخاطبة الطفل العربي عموما والطفل الفلسطيني على وجه الخصوص وجعلهما يدركان قيمة الهوية التي يحملانها، ويطالبان بحقهما فيها ويدافعان عنها عندما تقتضي الضرورة، ونورد هذه الآليات ودورها فيما يلي:

- اعتماد الكاتب على الآليات الفنية الجمالية جعله يؤثر في الطفل المتلقي التأثير الذي لا ينتهي بانتهاء لحظة التلقي، ولكنه التأثير المستمر الذي يتملك الطفل ويدفعه للتمسك بهويته.
- اعتماده المزج بين الخيال والتخييل بإبعاده الخيال عن وظيفته الجمالية المعتادة وإدخاله دائرة الوظيفية عن طريق عملية التخييل، ما يجعل الطفل المتلقي يصل بخياله إلى حدود الواقع الذي تتشكل فيه تمثلات هويته، ويتعدها بواسطة التخييل إلى حدود المأمول الذي يقود إلى انتصار العربي الذي يتمسك بهويته ويجاهد في سبيلها.
- وقد تمكّن محمد جمال عمرو بتركيزه على التراث التاريخي والعربي والقضية الفلسطينية من تطويع عقل الطفل المتلقي ووجدانه في آن واحد، مما يجعله قادرا على المطالبة باسترجاع حق هويته وكيانوته.

الهوامش:

¹ الصادقي العماري، التربية على المواطنة وحقوق الإنسان مشروع تكوين مواطن الغد، ص30-39، مجلة علوم التربية، عدد59، المغرب، 2014م، ص30.

² نجيب كيلاني، أدب الأطفال في ضوء الإسلام، ص13.

- 3 إبراهيم الكوفي، شعر محمد جمال عمرو: محاور المضمون وظواهر التشكيل الفني، ص 41-42.
- 4 وطفى علي أسعد وخالد الرميضي، إشكالية التربية على حقوق الإنسان، ص 34.
- 5 حسن شحاتة، أدب الطفل العربي، ص 13.
- 6 سمرروحي الفيصل، الخصائص اللغوية لأدب الناشئة، ص 205.
- 7 شكري عياد، الأدب في عالم متغير، ص 176.
- 8 محمد جمال عمرو، في خرفة الجنة، الأردن، دار إيتقان- ناشرون، ط 1، 2011م، ص 1.
- 9 محمد جمال عمرو، في خرفة الجنة، ص 2.
- 10 المرجع نفسه، ص 4.
- 11 المرجع السابق، ص 5.
- 12 المرجع نفسه، ص 7.
- 13 عبد الله أبو هيف، أدب الأطفال نظريًا وتطبيقيًا، ص 31.
- 14 محمد جمال عمرو، القدس حاضنة الأقصى، الأردن، دار إيتقان- ناشرون، ط 1، 2013م، ص 2.
- 15 المرجع نفسه، ص 3.
- 16 المرجع نفسه، ص 5.
- 17 أحمد نجيب، المضمون في أدب الطفل، ص 45.
- 18 المرجع السابق، ص 4.
- 19 محمد سيف الإسلام بوفلاقة، أدب الأطفال وأثره على النمو اللغوي وتنمية التفكير، ص 97.
- 20 الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 107.
- 21 ابن الزمكاني، التبيان في علم البيان، ص 107.
- 22 محمد جمال عمرو، الخليل مدينة أبي الأنبياء، الأردن، دار إيتقان- ناشرون، ط 1، 2013م، ص 3.
- 23 المرجع نفسه، ص 3.
- 24 المرجع نفسه، ص 5.
- 25 محمد أديب الجاجي: أدب الأطفال في المنظور الإسلامي، ص 45.
- 26 محمد جمال عمرو، الخليل مدينة أبي الأنبياء، ص 7.
- 27 نجيب الكيلاني، أدب الأطفال في ضوء الإسلام، ص 18.
- 28 محمد جمال عمرو، صقر فلسطين كايد مفلح العبيدات، الأردن، دار الإيتقان- ناشرون، ط 1، 2013م، ص 2.
- 29 المرجع نفسه، ص 3.
- 30 سعيد أبو الرضا، الخيال في أدب الطفل: الصورة المجازية، ص 139.
- 31 محمد جمال عمرو، صقر فلسطين كايد مفلح العبيدات، ص 5.
- 32 المرجع نفسه، ص 5.
- 33 عبد الرؤوف أبو السعد، الخيال العلمي: أهميته وتنميته ووظائفه وتأسيسه لثقافة طفل مسلم واعد، ص 172.
- 34 محمد جمال عمرو، الطائر الأخضر (مجزرة الحرم الإبراهيمي)، الأردن، دار الإيتقان- ناشرون، ط 1، 2013م، ص 2.
- 35 المرجع نفسه، ص 4.
- 36 المرجع السابق، ص 5.

المراجع

1. إبراهيم الكوفي، (2013)، شعر محمد جمال عمرو: محاور المضمون وظواهر التشكيل الفني، دار المأمون للنشر والتوزيع.
2. ابن الزملاكي، (1964)، تج: أحمد مطلوب، التبيان في علم البيان، ط1، مكتبة العاني، بغداد.
3. أحمد نجيب، (دت)، المضمون في أدب الطفل، دار الفكر العربي، بيروت.
4. الجرجاني، (1983)، كتاب التعريفات، ط1، دار الكتب العلمية بيروت.
5. حسن شحاتة، (دت)، أدب الطفل العربي، الدار المصرية اللبنانية، مصر.
6. سعيد أبو الرضا، (دت)، الخيال في أدب الطفل: الصورة المجازية، مكتبة البلاد العربية، العبيكان، السعودية.
7. سمروحي الفيصل، (1996)، الخصائص اللغوية لأدب الناشئة، مجلة التربية، المجلد25، العدد118.
8. شكري عياد، (1971)، الأدين في عالم متغير، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر.
9. الصادقي العماري، (2014)، التربية على المواطنة وحقوق الإنسان مشروع تكوين مواطن الغد، مجلة علوم التربية، العدد59، المغرب
10. عبد الرؤوف أبو السعد، الخيال العلمي: أهميته وتنميته ووظائفه وتأسيسه لثقافة طفل مسلم واعد، ط1، كتاب جماعي: أدب الأطفال، رابطة الأدب العالمي الإسلامية، السعودية، 2018.
11. عبد الله أبو هيف، (1983)، أدب الأطفال نظريًا وتطبيقيًا، دمشق.
12. محمد أديب الجاجي، (1999)، أدب الأطفال في المنظور الإسلامي، دارعمار.
13. محمد جمال عمرو، (2013)، الطائر الأخضر (مجزرة الحرم الإبراهيمي)، ط1، دار الإتيقان- ناشرون، الأردن.
14. محمد جمال عمرو، (2011) في خرفة الجنة، دار إتيقان- ناشرون، ط1، الأردن.
15. محمد جمال عمرو، (2013)، الخليل مدينة أبي الأنبياء، ط1، دار إتيقان- ناشرون، الأردن.
16. محمد جمال عمرو، (2013)، القدس حاضنة الأقصى، دار إتيقان- ناشرون، ط1، الأردن.
17. محمد جمال عمرو، (2013)، صقر فلسطين كايد مفلح العبيدات، ط1، دار الإتيقان- ناشرون، الأردن.
18. محمد سيف الإسلام بوفلاقة، (2019)، أدب الاطفال وأثره على النمو اللغوي وتنمية التفكير، مجلة بحوث، العدد13.
19. نجيب الكيلاني، (دت)، أدب الأطفال في ضوء الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت.
20. وطفة علي أسعد وخالد الرميضي، (2006)، إشكالية التربية على حقوق الإنسان، مجلة دراسات الخليج والدراسات العربية، العدد123، الكويت

لنقتبس من المؤلف:

دخية، فاطمة- سبقاق، صليحة، «ترسيخ حق الهوية الفلسطينية في أدب الطفل- قصص محمد جمال عمرو انموذجا»،
المجلد 07، الرقم 01، ص ص 339-353، <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/4801>